

إلى جسيكا على وجيرمي

حينما خاطب الرئيس جورج دبليو. بوش الأمة في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أطر الحادث داخل سؤال بدهى مكون من خمس كلمات [بصيغته الإنجليزية] «لماذا يكرهوننا؟ Why do They Hateus»، وجاءت إجابته عن السؤال بدهية وواضحة بنفس الدرجة: «يكرهون حرياتنا - حريتنا الدينية، حريتنا في التعبير، حريتنا في التصويت والتجمع والاختلاف مع بعضنا».

وإذا نحينا جانباً حقيقة أن السؤال والإجابة لم يحددا من المقصود بـ «هم» إلى حد كبير، إلا أنه من المهم أن تبين أن هذه الممارسة أوفت بحاجة خطابية فى لحظة بعينها فيما كان الناس يحاولون استيعاب تلك الأفعال الرهيبة. كان من المنطقى، وبأسلوب أكثر تعقيداً، طرح السؤال عن الأفكار التى يعتنقها هؤلاء الإرهابيون عن الولايات المتحدة والتى ألهمتهم القيام بتلك الأفعال. بالطبع، فقد أضمر الأسلوب الذى أطر به الرئيس بوش المسألة وأوحى بسؤال على نفس الدرجة من الأهمية، وعدم التحديد: ما فكرتنا [نحن] «عنهم»؟ أو كيف نفكر فيهم؟

هذا السؤال الضخم الحاسم هو ما أعالجه فى كتاب «تخيل الشرق الأوسط». إن الفرضية الأساسية التى أعمل وفقها هى أن ممارسة الولايات المتحدة للقوة والسطوة ثقافياً، اقتصادياً، عسكرياً، وسياسياً فى الشرق الأوسط، ظلت ممكنة

ومسوغة ومستدامة ومدعومة من خلال الأساليب المحددة التي يفكر بها الأمريكيون في المنطقة، وفي الشعوب التي تسكنها، والقوى النشطة هناك، ويفسرونها وفقا لذلك. من ثم وباستعارة مئى لصياغة أتت في كتاب دايفيد إنجرمان عن أسلوب عمل خبراء روسيا والسوفييت في الولايات المتحدة في القرنين التاسع عشر والعشرين، أتفحص في الكتاب الأساليب التي بها فهم الخبراء، والأكاديميون، ورجال الأعمال، ومسئولو الحكومة، والصحفيون في الولايات المتحدة، والذين كانوا يتلقون الأموال من أجل تفسير الشرق الأوسط للجماهير الأمريكية، أساليب فهمهم للمنطقة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، تقريبا، وحتى السنوات الأخيرة من ستينيات القرن العشرين. أرى أنه، ويمرور الوقت، فإن هؤلاء المطلين، والمعلقين، والخبراء، والمراقبين والمتخصصين فسروا الشرق الأوسط بأسلوبين أساسيين، مما يضيف

على العنوان: «تخيل الشرق الأوسط» معنى مزدوجاً. أولاً، فقد تخيلوا أن للمنطقة خصائص معينة، تتكشف في سلسلة خطابات متداخلة عن أناسها، ودينها، وحركاتها السياسية، وبنائها الاجتماعية، وصراعاتها المستقطبة، ولحظاتها الحاسمة. ثانياً، تخيلوا الشرق الأوسط وفقاً لما أملوا أن يصبح عليه نتيجة للتدخل الخارجى فى المنطقة، أو بتعبير آخر، اعتقد هؤلاء الأفراد بإمكانية تغيير الشرق الأوسط نتيجة لزيادة تعمق تدخل البلدان الأخرى - والولايات المتحدة بخاصة - فى شؤونه الإقليمية. من ثم، غدت الأساليب التى بها تخيلوا الشرق الأوسط فى أيامه الماضية أو الحالية هى التى تبرز، أو تفسر جزئياً، السياسات التى تهدف إلى خلق شرق أوسط، متخيل فى مستقبل الأيام.

يتطلب تبني هذه الأطروحات منى تنظيم الكتاب حول تيمات وقضايا محددة، بدلا من تنظيمه كسرد تقليدى يتبع التسلسل التاريخى. من ثم، أجدنى أقتصر التركيز على الحرب الباردة التى تهيمن بعامة على غالبية الأعمال الأكاديمية والبحثية التى تتناول تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، هذا على الرغم من أن الحرب الباردة تظل حاسمة فى التحليل الذى أتبناه، لكنها مجرد عامل واحد من بين العوامل الكثيرة المؤثرة كما يتضح من تفحص التصورات التى مازالت قائمة، والمتبدلة فى آن، التصورات عن المنطقة التى سبقت هذا الصراع، وتواجدت معه، وبقيت بعده، يبحث الفصل الأول تطور الخبرة وإنتاج المعرفة حول الشرق التى كان دافعها وبتزايد مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية والأمنية المتوسعة فى المنطقة. يتحول الفصل الثانى إلى مسألة الدين، العامل الأكثر وضوحا الذى يحدد الفرق بين الولايات المتحدة وغالبية مناطق الشرق الأوسط، حيث تقوم بتحليل المدركات المختلفة عن الإسلام، وأثره فى الشرق الأوسط ذاته، وتضمينات ذلك بالنسبة لتدخل الولايات المتحدة فى المنطقة ومصالحها هناك. يتفحص الفصل الثالث تأويلات الحركات القومية فى أنحاء المنطقة وردود الفعل عليها، ويتعاطى

الفصل الرابع مباشرة مع الدافع العلماني التحديثي الذي أرى أنه ظلّ، ومنذ وقت طويل وحتى الآن، يحفز تدخل الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وفي النهاية، ويعالج الفصل الخامس القضية الأساسية - أي الصراع العربي الإسرائيلي الفلسطيني - الذي تسبب في أكبر قدر من الاستياء لدى المشاركين في العملية المعقدة لتخيل الشرق الأوسط وكشّف عن التوترات العميقة بينهم.

ونتيجة لترتيب الكتاب وفقا للتيّمات، فإننا لا نجد مجرد نظرة عامة شاملة على تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، والتي يوجد منها بالفعل العديد من النماذج الجيدة، كما أنها ليست دراسة حالة تفصيلية متعمقة لعلاقات الولايات المتحدة ببلد بعينه في المنطقة. بدلا من ذلك، فإن الكتاب هو محاولة للإلمام بالأساليب التي فهم بها المراقبون المهنيون، والمعلقون، وصناع السياسة المنطقة بمجملها. ومما لا ريب فيه، فقد تعاطى هؤلاء الأفراد مع بلدان بعينها في تعليقاتهم أو سياساتهم لكنهم كثيرا ما فعلوا ذلك من خلال مُدركٍ أوسع للمنطقة ككل كما يوضح المثالان التاليان. أولا، في إبريل عام ١٩٥٦، ذكر «تقرير الاستخبارات القومية» مايلي: «من منظور مصالح الولايات المتحدة الأمنية، لابد أن نعتبر الشرق الأدنى كيانا واحدا. سيتطلب الدفاع عن المصالح الاستراتيجية في المنطقة (المنشآت النفطية، الاتصالات، المرافق الجوية الاستراتيجية) استخدام القواعد العسكرية، وحرية الحركة للقوات الدفاعية في أنحاء الجزء الأكبر من المنطقة». من ثم، فإنه لا يمكن فصل السياسة تجاه بلد بعينه عن السياق الإقليمي الأوسع. ثانيا، وكما يوضح الفصل الثاني، ميّز المتخصصون الإسلام بأنه دين «شمولي» يُعلّى على معتنقيه جميعهم أساليب تفكيرهم وأفعالهم. ومن الواضح أن هذا التقييم أضمّر إشكاليات كبرى، كما أننا لا نتبناه هنا، لكنه يكشف بالفعل المدى الذي به نظر الأمريكيون والمراقبون الآخرون آنذاك إلى الشرق الأوسط بصفته كيانا واحدا. من ثم، يصبح من الأهمية بمكان أن نفهم الكيفية التي بها وُجِدَت مثل هذه القراءة،

وتضميناتها بالنسبة لعلاقات الولايات المتحدة ببلدان بعينها، وأيضاً بالمنطقة الأوسع.

ووفقاً للتنظيم الذي اتبعناه في هذا الكتاب، يصبح من الممكن قراءة كل فصل منه على حدة كوحدة مستقلة، على الرغم من وجود خيوط عديدة تربط الفصول ببعضها، وتجعل منها تفحصاً متماسكاً متسقاً للأسلوب الذي تخيل به المراقبون المهنيون المنطقة. يأتى في البداية اهتمامى المنهجي العريض بضم المقاربات التى تركز على مسائل الأمن القومى، والديبلوماسية، والاقتصاد مع التأويلات التى تؤكد على السياقات الثقافية والأيدولوجية أو الفكرية ومعها اللاعبين الذين لا ينتمون إلى الدولة والذين أُنروا فى مسار علاقات الولايات المتحدة الخارجية. كثيراً ما ينظر الدارسون إلى تلك المقاربات على أنها حصرية بأسلوب متبادل بدلاً من النظر إليها على أنها تدعم بعضها، هذا على الرغم من أن الاستنباط الأكثر جدوى هو ذلك الذى يدرك أن حماية شئون الأمن القومى أو المصالح الاقتصادية، أو السعى إلى ذلك، كثيراً ما شكل دوافع صناع السياسة، على حين أن السياقات الثقافية والأيدولوجية أو الفكرية هى التى أثرت فى الأسلوب الذى تحددت به تلك المصالح، وطريقة التعبير عنها والسعى إليها.

ليس ثمة شك فى أنه ينبغى على الباحثين الجمع بين النهجين فيما هم يجهدون من أجل الإلمام بتاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. ومن الواضح أن بؤرة تركيز صناع السياسة الأمريكيين كانت هى المصالح الاقتصادية، وبخاصة النفط منذ عشرينيات القرن العشرين، وشئون الأمن القومى وبخاصة أثناء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى وبعدها. بيد أنه كان للثقافة والأفكار أهمية مركزية فى كيفية فهم صناع السياسة وعامة الأمريكيين القضايا الاقتصادية والأمنية معا. سرعان ما غدا النفط العامل الأكثر حسماً للجيش المميكنة بتزايد والمتقدمة تكنولوجياً وأيضاً للثقافة الاستهلاكية الجديدة التى أخذت فى التوسع سريعاً فى

أنحاء الولايات المتحدة أولا، ثم أوروبا، وفى النهاية فى أجزاء العالم المختلفة طوال القرن العشرين. من ثم، غدت إتاحة بترول الشرق الأوسط للولايات المتحدة وحلفائها مسألة حاسمة من الناحية الاقتصادية الاستهلاكية والعسكرية من أجل الحفاظ على ما أسماه الباحثون وصناع السياسة «أسلوب الحياة الأمريكى» فى الداخل والخارج، فهم الأمريكيون صراع الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى بأساليب مماثلة بصفتها صراعا على بقاء نظام الولايات المتحدة الثقافى والاقتصادى والسياسى فى الداخل، وأيضا بصفتها رؤية ملازمة كلية لخلاص العالم. من ثم، وفيما عمل صناع السياسة الأمريكيون والاكاديميون والصحفيون ورجال الأعمال الذين دعموهم، على تصديد مصالح الأمن القومى فى الشرق الأوسط وحمايتها، فقد أُجبروا على محاولة فهم المنطقة نفسها. وبدوره، أتى بهم ذلك الجهد وجها نوجه مع أفكارهم عن أناس الشرق الأوسط، ودياناته، وبنائه الاجتماعية، والحركات السياسية، وغيرها من معالنه. كاد يكون من المستحيل رسم أية سياسات من دون أخذ هذه المسائل فى الاعتبار.

أما الخيط الثانى الذى يمتد فى أجزاء تلك الفصول، والمرتبط عن كُتب بالخيط الأول، فهو بؤرة التركيز على الطبيعة المتغيرة للخبرة والمرجعية فى الولايات المتحدة بخصوص الشرق الأوسط تحديدا والعلاقات الخارجية بشكل أوسع. طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر، شكّل المبشرون والسياح، وكتاب الأسفار غالبية «الخبراء» فى شئون الشرق الأوسط. ثم توسعت هذه المجموعات، فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، لتتضمن الأكاديميين المهتمين بالشرق الأدنى القديم وبالدراسات الإنجيلية. ثم تنامت المجموعة مرة أخرى فى بدايات القرن العشرين بحيث تضمنت رجال الأعمال الذين لهم أنشطة تجارية مع الشرق الأوسط والصناعات النفطية الإقليمية الوليدة، وأيضا مجموعة بازغة من مفكرى السياسة والاستراتيجية ومعهم بعض الأكاديميين والمعلقين السياسيين الأوربيين. وبالرغم

من ذلك، فلم يكن هناك وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية سوى عدد قليل من الأشخاص فى الولايات المتحدة الذين يمكن وصفهم بأنهم مرجعيات فى شئون الشرق الأوسط الحديث. بدأت هذه الأوضاع فى التغيير أثناء الحرب التى أتت بأخريين من تخصصات مختلفة للتركيز على العلاقات الأمريكية شرق الأوسطية المعاصرة. ثم أتاح صعود الحرب الباردة فى نهاية أربعينيات القرن العشرين الذرائع السياسية الضرورية لكسب تمويلات كبيرة لقيام دراسات شرق أوسطية حديثة كمبحث علمى متمايز. ومنذ آنذاك وحتى الآن مضى عدد من يزعمون الخبرة فى شئون الشرق الأوسط فى التنامى.

أزعم أن الأمر انتهى بأن شكّل هؤلاء الأفراد شبكة غير رسمية تميزها ملامح أساسية معينة، أهمها هو أن جميع أعضائها كانوا يتشاركون فى اهتمام مهنى بالشرق الأوسط ذى توجهات نحو السياسة، وأنهم سعوا لنقل حس بدور المنطقة فى التصور الأوسع للسياسات الدولية. ويتعبير مختلف، فقد تقاسم هؤلاء هدفا مشتركا للإسهام فى السياسات والمناقشات العامة حول الشرق الأوسط وعلاقته بالولايات المتحدة. ميزوا أنفسهم بصفاتهم وبأسلوب ما، محللين مهنيين، ومعلقين، وخبراء، ومراقبين، ومتخصصين فى الأمور التى تتعلق بالشرق الأوسط، وبأنهم يتقاضون أجرا ليصبحوا هكذا. أيضا، كان ثمة مستوى معين للتناص البيئى فى إطار تلك الشبكة غير الرسمية، أى أن كثيرا من أعضائها كانوا ملمين بعمل نظرأنهم وكانوا يتصلون فيما بينهم إما بأسلوب مباشر أو غير مباشر فى اللقاءات المهنية، ومن خلال الخطابات، أو قراءة أعمال بعضهم أو اجترائها أو الاستجابة لها. بل إنه كانت ثمة تعبيرات مؤسسية عن وجود تلك الشبكة غير الرسمية من خلال الاجتماعات التى تعقدتها منظمات مثل مجلس العلاقات الخارجية أو معهد دراسات الشرق الأوسط. وأخيرا، فعلى حين أن غالبية المشاركين كانوا من الولايات المتحدة وتلقوا تدريباتهم فى مؤسساتها الأكاديمية أو الحكومية أو

مؤسسات البيرنس، فقد كانت الشبكة بشكل ما عبر/ دولية في مداها. كانت تعتمد بخاصة على الخبراء الأوربيين - من أمثال فالنتين تشيرول في السنوات المحيطة بالحرب العالمية الأولى، وهاميلتون إيه. آر. جيب منذ ثلاثينيات القرن العشرين وحتى نهاية خمسينياته، وبرنارد لويس منذ الستينيات وحتى وقتنا هذا، بين آخرين كثيرين - لكي يعملوا كمرجعيات في حد ذاتهم لكن أيضا كي يُدرّبوا الأمريكيين. لكن هذه الشبكة عبر/ الدولية غير الرسمية اجتذبت أفرادا من الشرق الأوسط ذاته، وبخاصة من لبنان، إما كمعلمين لخبراء المستقبل، أو كمشاركين في الحوارات بإمكانهم إضفاء المصدقية على التأكيدات المتنوعة بشأن المنطقة وشعوبها.

تتشارك الشبكة التي نتفحصها هنا في بعض الملامح مع الشبكات المعترف بها الأخرى، لكنها أيضا بأساليب مهمة تمثل قطيعة معها. في كتابها عن الجماعات الماسونية، تُعرّف المؤرخة جسيكا هارلاند - جايكوبس الشبكة بأنها «نظام مترابط، وبتحديد أكثر، فهي مجموعة من الأشخاص على علاقة متبادلة يتشاركون في المصالح والاهتمامات ويتفاعلون من أجل المساعدة المتبادلة. وفيما تعمل بعض الشبكات على نطاق محلي فقط، فثمة أخريات تعمل تزامنيا على مستويات متنوعة: محلية، قومية، إقليمية، بل وحتى كوكبية». وعلى الرغم من أن الماسونيين يشكلون شبكة رسمية وواسعة النطاق وأكثر مما شكله متخصصو الشرق الأوسط موضوع المناقشة، لكن من الممكن أن تطبق عليهم فكرة أنهم كانوا مترابطين ويتشاركون في مصالح واهتمامات، وأنهم كانوا يتفاعلون معاً من أجل العمل على تحقيق غاية متفق عليها تبادليا (وإن لم يكن من أجل المساعدة المتبادلة). لكن يجدر القول أيضا أن المتخصصين في الشرق الأوسط هؤلاء لم يكونوا وثيقي الترابط مثل «الفلانكنة» الذين وصفهم مؤخرًا الصحفي توماس جيمس مان في دراسة له عن مجموعة العاملين بالسياسة الخارجية من الحزب الجمهوري والذين بلغوا سن الرشد

السياسى فى السبعينيات والثمانينيات ثم عادوا إلى السلطة مع إدارة جورج دبليو. بوش. كانت تلك المجموعة، والذين أسموا أنفسهم «الفلانكة» على اسم إله النار وصنع المعادن وتشكيلها الرومانى، كانوا مجموعة مُحكمة بدرجة استثنائية من المسؤولين نوى الفكر المتماثل والذين كدّوا واجتهدوا من أجل الهيمنة على سياسة الولايات المتحدة الخارجية وتشكيلها بأسلوب لا يمكن الفكك منه، وبخاصة فى أعقاب إدارة كلينتون. أما المتخصصون فى الشرق الأوسط الذين نناقشهم فالأحرى مقارنتهم بالمختصين فى الشؤون السوفييتية الذين تفحصهم دايفيد إنجرمان ورأى أنهم كانوا مجموعة متنوعة فكرياً وسياسياً من «الأساتذة/ المستشارين» الذين جمع بينهم اهتمامهم المشترك فى الإسهام فى سياسات الحرب الباردة للولايات المتحدة فيما شاركوا فى خلق مجال كامل من الدراسة الأكاديمية وأعادوا تشكيله مرارا وتكرارا. ومثل متخصصى الشرق الأوسط موضع دراستى، ساعد متخصصو الاتحاد السوفييتى الذين درسهم إنجرمان على تعيين حدود الجدل والنقاش المتعلق بالاتحاد السوفييتى لعشرات السنين.

وفيما أذهب إلى أن شبكة عبر / قومية من المحللين والمعلقين والخبراء والمراقبين والمتخصصين ظهرت آنذاك، فإننى على وعى تام بحدود تلك الشبكة وحدود ما أطرحه بشأنها. لم يكن ثمة خطوط إرشادية واضحة يتقرر وفقها عضوية تلك الشبكة، كما أن الأفراد الذين أكتب عنهم لم يتحدثوا أبداً عن أنفسهم بصراحة بصفتهم أعضاء فى شبكة، ومن ثم، يظل هناك بعض الأشخاص فى هذا الكتاب يقاومون وضعهم بسهولة ضمن تصنيفات بعينها. وعلى الرغم من ذلك، فإننى أجد فكرة وجود شبكة عبر/ قومية غير رسمية من المتخصصين المهنيين مفهوماً مُجدياً أنفحص من خلاله كيف تخيل الأمريكيون الشرق الأوسط. أيضاً، ولكى أكون واضحاً، فإننى باستخدامى مفهوم الشبكة عبر/ القومية لا أوحى بأى حال أن جميع هؤلاء الأشخاص كانوا متفقين على جميع القضايا الكبرى وقتئذٍ أو أنهم

مارسوا سطوة مُلزمة لدى اتخاذ قرارات سياسية محددة. ففي واقع الأمر فقد ولدت قضايا عديدة جدلا لا يستهان به بين أعضاء الشبكة. بل إن التوافق المبدئي على قضية بعينها لم يكن يؤدي دائما إلى الخروج بوصفة سياسية واحدة. لذا نجد أن الأجدى هو أن ننظر إلى الخبرة التي كان يزعمها هؤلاء الأشخاص والتأويلات التي كانوا يطرحونها على أنها ساعدت على إرساء حدود الجدل والنقاش حول الشئون الإقليمية ودور الولايات المتحدة فيها.

يسمح تفحص هذه الشبكة عبر / القومية غير الرسمية من المتخصصين في الشرق الأوسط الذين عكفوا على تفسير المنطقة للجماهير الأمريكية، يسمح لنا بالاعتماد على مفهوم دايثيد إنجرمان عن «المعرفة من أجل القوة الكوكبية» و«المعرفة كقوة كوكبية». في ظل المصنف الأول، أي المعرفة من أجل القوة الكوكبية، عمل الأكاديميون والمتخصصون الآخرون على قضايا تتعلق بالشرق الأوسط بهدف محدد واضح، ألا وهو مساعدة صناع السياسات. وفي نفس الوقت، نظر كثير من الأشخاص وبخاصة في المجال الأكاديمي أو الإعلامي لأنفسهم على أنهم يلعبون دورا حاسما في تثقيف المجتمع العريض عن المنطقة، ومكانها في حلبة السياسة الدولية، ودور الولايات المتحدة هناك، واعتبروا أنهم كانوا بهذا يشجعون اكتساب المعرفة بالقوة الكوكبية بصفتها مسئولية جوهرية لجميع الأمريكيين. وأخيرا، اعتمد كثير من المتخصصين بدرجة كبيرة على أساليب جديدة زعم أنها محايدة أو موضوعية لتحديد خصائص معينة للمنطقة وتصنيفها وقياسها. وفر قياس معدلات الإلمام بالكتابة والقراءة، ومعدلات الفقر، وإنتاج الطعام، والمردودات الاقتصادية بين أشياء أخرى، وفر وسيلة لتصنيف البلدان، وأنظمة الحكم، والنظم السياسية، بل وحتى الشعوب، وإمكانية استخدام تلك القياسات لوضعها ضمن تراتبية دولية أوسع للدول والشعوب.

تؤدي بنا هذه النقطة إلى خيط ثالث يتخلل الكتاب: المحاولات المتسقة لأعضاء

تلك الشبكة من الأكاديميين ورجال الأعمال والصحفيين وصناع السياسة لتخيل الشرق الأوسط وقد تم تغييره أو تحديثه، كان دافع إحداث التغيير هذا هو تقاطع رؤيتين قويتين أكثر اتساعا للولايات المتحدة ودورها الكوني ومشروعها في العالم. أشار أندرز ستفانسون لهذا المشروع على أنه «إدماج فريد لأيدولوجيا إلهية وأخرى جمهورية حدث بعد الثورة [الأمريكية] مزج دينامي للمفاهيم المقدسة والدينيوية [العلمانية]». كان المفهوم المقدس يحيل إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة مكان متميز «اصطفاه الرب لتحقيق أهداف إلهية مقدسة». أما الديوى أو العلمانى، فكان يستند إلى فكرة أن الولايات المتحدة هي تجربة فريدة فى الفضائل الجمهورية، والحرية والتقدم المنهجي، ومن ثم، فهي «مكان يُعرض فيه نظام عالمي جديد» بإمكانه أن يفيد «البشرية جمعاء». ومنذ بدايات القرن التاسع عشر وإلى الآن، ظل هذا الحس بالرسالة المقدسة والمهمة العلمانية يشير إلى أن للأمريكيين دورا فريدا عليهم تأديته فى الشرق الأوسط. كان المبشرون الأمريكيون فى القرن التاسع عشر يرون أن المؤسسات التعليمية والخيرية التى أقاموها فى أنحاء المنطقة يُحتمل لها أن تعمل على تحول المسلمين والأهالى المسيحيين عن دينهم؛ بل أيضا على أنها تحققُ للنبوءة الإنجيلية الأوسع القائلة بظهور «أورشليم جديدة» تعمل على خلاص «أورشليم القديمة». وطوال النصف الأول من القرن العشرين فهمت شبكة المتخصصين البازغة إمكانية التحول السياسى كما تجلت فى صعود القوى القومية العلمانية على أنها، جزئيا، من ثمار تجربة المبشرين الأمريكيين، وأيضا كرد فعل على الكولونيالية الأوروبية وما تخيله الأمريكيون على أنه استبداد إسلامى. وفى نفس الوقت، غدت رواية موازية عن التحول الاجتماعى/الاقتصادى متضمنة فى مشاركة شركات الولايات المتحدة فى تطوير موارد الشرق الأوسط النفطية وفى جهود الحكومة الأمريكية فى المنطقة. عملت المؤسسات من أمثال أرامكو، بونما كلل، للدعاية نفسها على أنها تأتى بالتقدم والتنمية إلى شعوب المنطقة هذا على الرغم من

أن الوقائع على الأرض كانت تشير إلى أن القصة أكثر تعقيداً بكثير. أدمجت هاتان الروايتان التوم مع أشكال جديدة للمعرفة الاجتماعية العلمية بحلول أواخر الخمسينيات وبدايات الستينيات من أجل دعم تطبيق حكومة الولايات المتحدة سياسات تهدف إلى تحديث الشرق الأوسط. وحينما أدت الفرضيات المعيبة التي قامت عليها تلك السياسات إلى فشلها، استند المتخصصون إلى الأساليب الراسخة لتخيل الشرق الأوسط كي يبرهنوا على أن المنطقة غير قادرة على تغيير نفسها.

استند تخيل المهمة الفريدة المناطة بالولايات المتحدة لتغيير الشرق الأوسط على تخيلات مترابطة عن كُتب بتحليلات مقدسة وعلمانية للمنطقة على نفس الدرجة من القوة. فمنذ بدايات القرن التاسع عشر، على الأقل، ظل الأمريكيون يتخيلون الشرق إما على أنه «مهد الحضارات» أو «مكان مولد ديانات عظمى ثلاث»، أو على أنه ببساطة هو «الأرض المقدسة». وحينما تزايد اهتمام الولايات المتحدة وتدخلها في المنطقة في القرن العشرين، أثرت المخاوف المقدسة من نور الإسلام كقوة «شمولية» في جهود الولايات المتحدة لدعم ظهور الحركات القومية العلمانية في أنحاء المنطقة؛ لكن حينما لم تتطابق تلك الحركات مع رغبات الولايات المتحدة، شجع أعضاء الشبكة وصناع السياسات النماذج العلمانية للتحويل الاجتماعي/الاقتصادي، أو التحديث. وحينما فشلت هذه النماذج تم تفسير هذا الفشل من خلال عدسات المقدس والعلماني وثيقة الترابط. وتبدت المشكلة الأكثر إرباكاً وإيلاماً - الصراع العربي / الإسرائيلي / الفلسطيني - للمراقبين على أنها نتاج تقاطع المخاوف الدينية المقدسة والقومية العلمانية في الأوساط العربية، واليهودية معا.

يتطلب بحث تلك التخيلات عن المهمة المقدسة والواجب العلماني لخلق شرق أوسط «حديث» من المرء تفحص ما كان يعنيه المصطلح (الحديث) في فكر المتخصصين. فمنذ الحرب العالمية الأولى صعوداً، أصبح المصطلح بتزايد يعنى دولة قومية علمانية موثوقة تتبع سياسات لإضفاء الصبغة الرسمية على النظم

القانونية والدستورية التي تحمى حقوق الأفراد، وتشجع النمو الاقتصادي ذا التوجهات الاستهلاكية، وتوفر الخدمات الاجتماعية وبخاصة في مجالات التعليم والرعاية الصحية، الأمر الذي من شأنه تحسين الحياة اليومية لمواطني الدولة. وبالنسبة لمراقبين عديدين كانت تركيا كمال أتاتورك هي نموذج البلد الحديث، حيث أمل أتاتورك في إضعاف الإسلام ومعه ارتباط الجماهير بالماضي العثماني من خلال إعلانه جمهورية تركية مستقلة، وإلغاء الخلافة، وتغيير الحروف الأبجدية بين أشياء أخرى. وفي نهايات الأربعينيات وبدايات الخمسينيات اعتبر المتخصصون من أفراد الشبكة غير الرسمية أتاتورك نموذجا للقائد الذي أملاوا أن يروه يصعد إلى السلطة في دول المنطقة.

بيد أنه، كانت الحداثة في الشرق الأوسط، بين حين وآخر، تحتل مكانة أذنى من إقامة تحالفات عسكرية وسياسية موثوقة تساعد الولايات المتحدة على حماية مصالح أمنها القومي. تبدت التوترات بين هاتين الرؤيتين للشرق الأوسط في العلاقات الناشئة بين الولايات المتحدة ومصر من جهة وبين الولايات المتحدة والسعودية من جهة أخرى. في الخمسينيات والستينيات، تخلت الولايات المتحدة عن علاقتها مع مصر التي كانت تحاول تحقيق أوجه كثيرة من الأجندة الحداثية التي وُصفت سابقاً، والتي لم تكن على استعداد للخضوع للرغبات السياسية والعسكرية الأمريكية. وبالتقابل، رسخت علاقاتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية بالملكة العربية السعودية التي كانت، وبلا ريب، معادية للحداثة (وفقاً للتعريف السابق) لكنها كانت حليفاً إقليمياً موثقاً تمتلك احتياطات نفط هائلة، فيما استمر الأمريكيون ممن هم على علاقة بأرامكو يقومون بالدعاية للشركة على أنها تقوم بتحديث المملكة الصحراوية.

يعمل التركيز على الرؤى التحويلية للشرق الأوسط، ونقيضاتها المضمرة - القلق من «التخلف» أو «الموروثات» في المنطقة - على إلقاء الضوء على الخط

الرابع الذى يتخلل فصول الكتاب: محاولتى للإسهام فى ما أسمته ميلانى ماكأليستر الفهم «المابعد كلونىالى» للعلاقة متعددة الأوجه بين الولايات المتحدة والشرق. تُحيل ماكأليستر إلى كتاب [الراحل] إدوارد سعيد «الاستشراق» الذى رأى أن الأوروبين الغربيين وبعدهم الأمريكيون استغلوا سلسلة من الخطابات الماهوية essentializing [تقلص الظاهرة إلى جوهر أو ماهية] من أجل ممارسة الهيمنة الثقافية والمادية على «المشرق The Orient». ذهب سعيد إلى أن الخطاب الاستشراقى استشهادى، أو إحالى إسنادى، حيث أسست المرجعيات الأولى شبكة إحالات إلى بعضها تدعم كل منها الأخرى. عمل هذا الخطاب على تأنيث الشرق الأوسط فى فكر أوروبا الغربية والأمريكيين وذلك من خلال تمييز شعوب المنطقة بأنهم ضعفاء، عاطفيون أو لاعقلانيون. أدى هذا الخطاب إلى إرساء علاقة فكرية بين الشرق الأوسط والغرب مؤسسة على ثنائيات - قوى وضعيف، مؤنث ومذكر، متخلف أو تقليدى وحديث. يتردد مؤرخو علاقات الولايات المتحدة الخارجية فى قبول أطروحة سعيد ونهجه لأسباب عديدة، وبعمامة، فهم يبدون عدم ارتياحهم للأسلوب الذى عزل به سعيد مصادره عن سياقاتها التاريخية المميزة، ثم طرح مزاعمه «الماهوية» الخاصة عن طبيعة علاقات أوروبا الغربية والولايات المتحدة بالشرق الأوسط. علاوة على ذلك، يبذل كثير من الباحثين فى علاقات الولايات المتحدة الخارجية جهودهم لتبنى مقاربات وأطروحات لا يمكنها إثبات وجود رابطة سببية مُميزة بين تمثيلات ثقافية بعينها أو مدركات شعبية محددة وبين السياسات الفعلية [التي تنتهجها أمريكا].

أحد أساليب التوصل إلى تأويل ما بعد كلونىالى هو التركيز على أفراد أو مجموعات من الذين دأبوا على التفكير فى الشرق الأوسط على أساس يومى وكيف تجسد هذا التفكير فى توجهات الولايات المتحدة الدولية. لن يؤدى نبش الفرضيات وإخراجها من مكانها، ومعها الأطر التأويلية المرشدة، والروايات عن الشرق

الأوسط ومكانه في العالم، لن يؤدي بنا بالضرورة إلى الإلمام بالسياسات المحددة، لكنه يساعدنا بالتأكيد على استرداد المصادر لسياقاتها التاريخية الصحيحة والإقرار بدوافعها السياسية الصريحة، هذا علاوة على أنه يساعدنا على فهم المناخات الفكرية التي جرت فيها الجدالات حول طبيعة علاقات الولايات المتحدة والشرق الأوسط وتوجهاتها.

من ثم، يتيح لنا تفحص أفكار هؤلاء الذين شُغِلوا بالشرق الأوسط على أساس يومي تحدى أطروحات إدوارد سعيد والدفع بها قُدماً في آن. تشير بؤرة تركيزي على شخصيات شبكة غير رسمية من مراقبي الشرق الأوسط المهنيين إلى وجود سمة إنسانية استشهادية لتخيلات الأمريكيين للمنطقة، وعلى حين أن أفراد هذه الشبكة لم يتفقوا دائماً على بعض القضايا المحددة، فإنهم طوروا أساليب تدعم بعضها تبادلياً لفهم المنطقة والتي عملت في مجموعها على إرساء حدود الجدل الخاص بالعلاقات الأمريكية/ الشرق الأوسطية. لكن تلك التخيلات استخدمت ما هو أكثر بكثير من الخطاب التاتيئي؛ تكشف الصفحات التالية عن نزوع لشخصنة مدركات معينة للشرق الأوسط، ولكبسلة آمال وأحلام ومخاوف وغضب الأمريكيين وغير ذلك من عواطفهم وأفكارهم بالنسبة للحركات والتوسعات الأوسع في المنطقة، كبسلتها جميعها في شعب بعينه. كان تأنيث الأفراد من أمثال محمد مصدق واحداً من بين العديد من الطرق السلبية الاستطرادية التي استفدتها تلك العملية إلى نهايتها، لكن كان بإمكانها أيضاً اتباع الطريق النقيض. حدث هذا حينما جعل المحللون من كمال أتاتورك نموذجاً للزعيم العلماني التحديثي الذي أملوا أن يحاكيه الآخرون. وفي كلتا الحالتين فإن إضفاء تلك السمات على أفراد رئيسيين وشخصيتها كان جزءاً من جهد أوسع لإسباغ الشرعية أو عدم الشرعية على أنظمة المنطقة. أيضاً، توسع التركيز على الأشخاص ليتجاوز شخصيات معينة ويشمل شعوباً بأكملها. كانت ثمة جهود عديدة لتثقيف الأمريكيين بشأن سمات شخصية

مزعومة متأصلة في «العرب» أو «المسلمين» أو «المحمديين Mohammedans» وترجم حرفياً «عبدة محمد». وأخيراً، وفيما كانت تلك التشخيصات الثنائية (قوى/ضعيف، مؤنث/مذكر.. إلخ) أوجهاً مهمة للكيفية التي تصور بها المتخصصون الشرق الأوسط، كانت العملية في مجملها أكثر تعقيداً بكثير. مثلاً، يغفل التركيز على الثنائيات وحدها إمكانية التحول الدينامي الذي كان جزءاً جوهرياً من كيفية تخيل أعضاء الشبكة لتدخل الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

ومعاً، تكشف تلك الخيوط التأويلية التي أوردنا تفاصيلها أعلاه الخطوط العريضة، على أقل تقدير، لما يسميه تيموثي ميتشل في كتابه عن استعمار البريطانيين لمصر، «إطار للمعنى» أخذ في التطور.. هيكل فكري صُمم بحيث يجعل أشياء معقدة ومتباينة منظمة ومنهجية وقابلة للفهم داخل سياق محدد». أمد الإطار المتخصصين من الأكاديميين، ورجال الأعمال، والإعلاميين، ومسئولي الحكومة بأسلوب لجعل الشرق الأوسط مفهوماً، واستطراداً، لتعيين موقع المنطقة وجميع القوى النشطة هناك داخل إطار سياق دولي أوسع كانت فيه الولايات المتحدة في سبيلها إلى البزوغ كبلد العالم الأقوى الذي كان له مصالح على قدر كبير من الأهمية في تلك المنطقة. ومما لا ريب فيه، فإن مكونات هذا الإطار المختلفة كانت تكمل بعضها وتناقض بعضها في آن، أحياناً، كان الأسلوب الذي أدرك به أمريكيون كثيرون الحرب الباردة لبلدهم ومصالح أمنها القومي في الشرق الأوسط التي تركز على النفط، كان يتناقض مع مدركات هؤلاء الأفراد عن الصراع العربي/الإسرائيلي/الفلسطيني وعن دور الدين، أو المعنى الأوسع للمهمة المقدسة والعلمانية التي مثلت الدافع الحيوي لتدخل الولايات المتحدة في المنطقة. وبالمثل، فكثيراً ما كانت محاولات فهم الحركات القومية والاستجابة لها تسير في اتجاه معاكس للجهود المماثلة التي تتعلق بدور الدين. ليست هذه هي التوترات الوحيدة المتعضونة في إطار المعنى الأوسع الذي أناقشه في الصفحات التالية، لكنها تفيدينا في توضيح مدى التعقيد الذي كان عليه هذا الإطار.

ليس لدى أية نية، من خلال تفسير إطار المعنى هذا، للترويج لتنوعية جد معيبة من المدركات والتنميطات عن الشرق الأوسط وشعوبه أو العمل على استمرارها. يتراوح المدى الواسع لهذه الأفكار الخاطئة بين تجاهل التنوع الديني عبر العقائد الدينية المختلفة وأيضا بين طوائف الدين الواحد المختلفة، وبين العنصرية الفاضحة وإضفاء الخصائص التي تحط من شأن شعوب المنطقة، الأخرى أن هدفى هو أولا محاولة إعادة خلق الشرق الأوسط الذى تخيل أفراد شبكة غير رسمية من المتخصصين ذوى التوجهات السياسية الذين ينتمون إلى مهن مختلفة تخيلوا أنهم يعرفونه. وثانيا أحاول أن أفهم. كيف أصبحت تلك التخيلات عوامل مؤثرة فى النقاشات حول نور الولايات المتحدة فى المنطقة وفى العالم الأوسع. من ثم، فإن كثيرا من الذى سيلي فى هذا الكتاب، بما فى ذلك المجترأت التى تشير إلى «المحمديين Mohammedans»... أو غير ذلك من المصطلحات المسيئة التى تتم عن تبليد الأحاسيس، يتعلق بالأفراد الذين كانوا يقومون بالتخيل، وليس بموضوع تخيلاتهم، وذلك لأنه فقط بفهمنا أولا لأصول مثل إطار المعنى هذا يصبح بإمكاننا تجاوزه.

وعلى حين أننى لا أستخدم مصادر باللغة العربية، فإننى لا أعتقد أن الأسئلة التى أهتم بها، والتى يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عنها تتطلب، فى معظمها، هذه المصادر. ثمة مفاتيح كثيرة لفهم تاريخ علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، ونستطيع العثور على أحدها من خلال تفحص كيف فهم أفراد تلك الشبكة غير الرسمية فى الولايات المتحدة والمرتبون بهم من أوروبا والشرق الأوسط، فهموا المنطقة، وكيف نقلوا أفكارهم هذه للجماهير الأمريكية. تظهر مفاتيح أخرى من خلال الدراسات التى تستند إلى حد كبير، أو حصريا، على المصادر باللغة العربية. وفى الواقع، فإن هذه الدراسات هى نقيض تام لما أضطلع به فى هذا الكتاب إذ إنها تستند إلى المصادر العربية لتفحص كيفية تخيل شعوب الشرق الأوسط

للولايات المتحدة. وفي الواقع، فإن تاريخ علاقات الولايات المتحدة والشرق الأوسط معقد بدرجة لا تكاد تصدق، ويتطلب فهم هذا التاريخ دراسات ومقاربات متنوعة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني بالفعل أستند إلى بعض الدراسات المعاصرة المؤسسة على مصادر باللغة العربية في لحظات معينة من أجل تصويب بعض الآراء الواردة في المصادر باللغة الإنجليزية التي استخدمها.

وفيما أنني أستند إلى مدى واسع من الدراسات والأبحاث وأنا أعرض أطروحة كتابي وأفضلها، فقد وفرت لي عدة أعمال رئيسية نماذج للمحاكاة ونقاطاً لانطلاقات جديدة في أن يعتبر كتابا دوجلاس ليتل «الاستشراق الأمريكي» وميلاني مكاليستر «لقاءات ملحمية» رائدين في هذا المجال حيث يركزان على الشرق الأوسط تحديداً. يحلل أول فصول كتاب ليتل كتابات الأسفار في القرن التاسع عشر، ومنتجات القرن العشرين الثقافية مثل مجلة ناشونال جيوغرافيك وفيلم علاء الدين ويستند إلى تحليله لهذه الأعمال فيما يذهب إليه من أن أفكار الأمريكيين عن الشرق الأوسط لها دور في صياغة السياسة. ثم بعد ذلك يقوم بعرض ممتاز لتاريخ السياسة ينتظم حول تيمات محددة (النفط، الأمن القومي، الصراع العربي الإسرائيلي.. إلخ)، لكن ولسوء الحظ، لا يركز كثيراً على الأفكار على خلاف ما يوحى به فصله الافتتاحي. وبالمقابل، تقوم مكاليستر بتحليل الأفلام، والمشاهد والتعليقات الهزلية الكوميديّة، والكاريكاتيرات السياسية والأدب، ضمن أشياء أخرى لتحلل كيف تأثرت الثقافة الأمريكية بالعلاقات الأمريكية شرق الأوسطية، وكيف عكست تلك الثقافة هذه العلاقة. مرة أخرى، وعلى الرغم من أن كتاب مكاليستر عمل لافت مهم إلا أنه لا يقول سوى أقل القليل عن العلاقات الفعلية بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط. يستهدف بحثي مكانا بين الاثنين حيث تؤثر الأفكار والثقافة بأسلوب توجهاته سياسية. وبهذا المعنى، فقد ينظر القراء الذين اطلعوا على الكتابين إليهما بصفتهما نقاط النهاية التفسيرية التي ينطلق منها هذا الكتاب.

وأخيراً، يُعتبر كتابا دايفيد إنجرمان اللذان فازا بعدد من الجوائز، أي «التحديث من الشاطئ الآخر» و«اعرف عدوك» واللذان يتعاطى فيهما المؤلف مع المختصين بالشأن الروسي والسوفييتي في الولايات المتحدة، يعتبران دراسات حالة كاشفة لتقاطع الخبرة وإنتاج المعرفة والسياسات الدولية. وقد استهلمت هذين الكتابين في عملي هذا، حيث يبلور إنجرمان فهما ثاقبا للسياقات الروسية/السوفييتية وأيضاً للسياقات الأمريكية. علاوة على ذلك يعتبر الكتابان إسهاماً مهماً في موضوع احتراف الخبراء في الولايات المتحدة، ولكل هذه الأسباب كان الكتابان مرشدين هاديين لي في عملي هذا.

١- الأسرى، المبشرون، السياح، والمستشرقون:

علينا، قبل أن نتفحص كيف تخيل متخصصو القرن العشرين الشرق الأوسط، أن نعرف كيف التقى أسلافهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمنطقة وما كانت أفكارهم عنها، ونبحث مدركاتهم وفرضياتهم التي ورثوها للأجيال المتعاقبة. منذ إقامة الولايات المتحدة وطوال القرن التاسع عشر، كان مرجعية أي شخص عما كان يُعرف آنذاك على أنه جزء من «المشرق» الأكثر اتساعاً، أو بالتحديد مرجعيته عن «الشرق الأدنى» تعتمد إلى حد كبير على ما إن كان قد خبره مباشرة أم لا. من ثم، فقد حدثت لقاءات غالبية الأمريكيين بـ«المشرق» من خلال التعليقات التي أمددهم بها مجموعة متنوعة من الأسرى، وأعضاء الإرساليات التبشيرية، والسياح، وكتاب الأسفار. وبحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أضفى حقل دراسات الشرق الأدنى القديم أو الدراسات الإنجيلية الذي كان قد استُحدث، المصداقية الأكاديمية على مدركات الأمريكيين عن المنطقة. أتت كل من هذه المجموعات بنهجها الخاص ليتخيل الشرق. ومن ثم زعمت لنفسها بعض المرجعية أو الخبرة الخاصة. بيد أنه كان يعلو المعرفة التي أنتجتها كل منها طبقات مما أتى به السابقون، علاوة على أنها كانت تعكس نفس تيماتهم الأساسية.

كان «المشرق» كما تخيله الأمريكيون الأوائل يبدو عقبة في سبيل المهمات المقدسة والعلمانية والتي يرى أندروز ستفانسون أنها كانت تكمن في لب مدرك تلك الأمة الجديدة، عن مكانها في العالم. رأى هؤلاء أن الإسلام وأشكال المسيحية الشرقية تمثل تحديات لتوسع الرؤية المسيحية المقدسة، فيما بدا الإسلام، والنظم الملكية والاستبداد عوائق في سبيل انتشار النموذج الجمهوري العلماني. استند كثير مما كان يمرر في القرن التاسع عشر على أنه معرفة أمريكية مميزة إلى تقارير انطباعية عن حوادث بعينها عولجت بأسلوب يهدف إلى الإثارة وكانت مؤسسة جوهريا على روايات دينية أعلت من شأن شريحة معينة من البروتستانت الأمريكيين على حساب المسيحيين والمسلمين من سكان المنطقة الأصليين.

كان التحليلات الأمريكية عن المشرق التي لقيت أوسع رواج بين القراء هي بضع سير [للسول] أو «Mahomet» أو ماهاوند [وهو تحريف لاسم «محمد صلى الله عليه وسلم يرمز به إلى وحش سفر الرؤيا الهائل الذي يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على جبل المعبد]، وكتب الرحالة بين حين وآخر، وروايات البحارة ممن تم أسرهم بواسطة القوى شمال الإفريقية في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. يكشف تحليل المؤرخ روبرت أليسون لنصوص تلك الأدبيات الكولونيالية والأدبيات الأمريكية المبكرة عن أنها كانت عاملا جوهريا في تحديد مستقبل الولايات المتحدة، يزعم أليسون أن الخبرات المباشرة مع العالم الإسلامي والقراءات عنه تسببت في أن يرى الأمريكيون الأوائل «نموذجاً لنوع المجتمع السياسي الذي لا يرغبون في وجوده لديهم». قدمت تلك النصوص بتصويرها مجتمعا معاديا للنظام الجمهوري يتسم بالاستبداد الديني وضعف القيادات السياسية والانحلال الجنسي وتاريخ من أسر الأعداء في الحروب واستعبادهم، قدمت صورة لنوع الحكم والمجتمع اللذين أراد الأمريكيون تجنب استساخهما. ويغض النظر عن مدى دقة هذه التخيلات، فقد أضحت جزءا لا يتجزأ في الخطاب

السياسى وقتنذ بدرجة أنه كان بإمكان الأمريكیین من مختلف الانتماءات السیاسیة أن یجدوا المبررات فى تلك القصص الشعبیة المألوفة لجمیع المواقف شدیة الاختلاف التى تبناها تجاه بلدهم الجدید. وهكذا، استُخدم «المشرق» مجازاً نقد من خلاله «الآباء المؤسسون» فى الولايات المتحدة بعضهم ونزعوا الشرعیة عن بعضهم. مثلاً، دافع جون كوینسى آدمز عن مخاوف والده من أن تؤدى الحریة المفرطة إلى تدهور الأحوال فى البلد ووصولها إلى حال من الأناركیة، بل وربما الحكم المستبد، بأن هاجم توماس جفرسون وشوه سمعته لدفاعه عن كتاب توماس پابن «حقوق الإنسان». لُقّب آدمز الرئیس چفرسون بـ «النبی العربی» الذى يدعو إلى «إسلام الدیموقراطیة»، وحسب تعبیر ألیسون، فقد أتاح العالم الإسلامى كما صورته تلك المرجعیات المبكرة «درسا للأمریكیین فى ما لا ینبغى علیهم أن یفعلوه، وفیما ینبغى علیهم أن یتجنبوه و هم یشیدون دولتهم ویمارسون التجارة أو یكونون أسرهم. ومن أجل أن یزدهر الرجال والنساء ویتقدم المجتمع، لابد من التحكم فى السلطة وضمن الحریة».

وبعد حسم الصراعات مع القوى شمال الإفريقية عام ١٨١٩، سرعان ما رحلت الإرسالیات التبشیریة السیحیة متوجهة إلى البحر الأبیض المتوسط من أجل إسماع صوت الرؤیة الأمريكیة المقدسة والعلمانیة. وصل طلیعة المبشرین الأمريكیین من الولايات المتحدة إلى الإمبراطوریة العثمانیة عام ١٨٢٠. وبحلول منتصف القرن كان خلفاؤهم قد غنوا یشكلون أكبر مجموعة أمريكیة فى المنطقه. بید أن المبشرین سرعان ما أدركوا أن من غیر المحتمل لهم، وبالرغم من جهودهم الشاق، تحویل المسلمین عن عقیدتهم. بید أن تعلمهم اللغة العربیة أتاح لهم توسیع نطاق أنشطتهم لتتجاوز المسائل الدینیة لتشمل مجالات أخرى وبخاصة التعلیم. وبحلول عام ١٩٠٠ كان المبشرون، ورجال البر الأمريكیون والمربون المستقلون قد فتحوا ما یربو على ثمانمئة مدرسة ابتدائیة وثانویة تخدم حوالى ٤٠ ألف تلمیذ فى

أنحاء المنطقة، علاوة على مؤسسات أخرى للتعليم العالي، بما في هذا كلية روبرت بتركيا والكلية البروتستانتية السورية (أعيد تسميتها الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٢٠). تعلم العرب في تلك المدارس مقررات علمانية مؤسّسة على التجارب الأوربية والأمريكية: التنوير، صعود القومية، وتطور الديمقراطية في أعقاب الثورتين الأمريكية والفرنسية.

ما دافع تلك الإرساليات التبشيرية آنذاك للمضى في تنفيذ تلك الأجنحة بالشرق الأوسط، وبخاصة مع حقيقة نادرة من تحولوا إلى المسيحية؟ كان أحد دوافعهم إلى هذا إيمانهم المُتقد بأن الولايات المتحدة والأرض المقدسة (لليهود والمسيحيين) مترابطتان بأسلوب لا ينفصم عراه وفقا للمشيئة الإلهية. وفي الواقع، فقد جسّد المبشرون الذين ذهبوا إلى المشرق «الرؤية» الأمريكية المقدسة والعلمانية بما قد يفوق أية مجموعة أخرى.

في القرن التاسع عشر، رأى البروتستانت الأمريكيون وقد حفزتهم الرابطة الروحية بالأرض المقدسة ومعها قراعتهم المعقدة للإنجيل والتاريخ بعامة، رأوا إقامة الولايات المتحدة بصفتها تحققاً للنبوءة الإنجيلية بقيام أورشليم جديدة. ورأوا أيضا أن خلاص أورشليم القديمة التي دُنست لقرون عديدة كان منوطا بهم وبالمربين ورجال البر من أورشليم الجديدة (الولايات المتحدة). ظلت الرغبة لتغيير «المشرق»، وتحويله من المنظورين المقدس والعلماني قوة دافعة مهيمنة بالنسبة للأمريكيين المرتبطين بالمنطقة منذ القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن الحادي والعشرين.

اعتاد المبشرون الذين أناطوا بأنفسهم تنفيذ مشروع خلاص تلك المنطقة كتابة الخطابات إلى أهلهم وتقارير إلى أبناء طوائفهم وصفوا فيها العوائق الكثيرة التي واجهوها بما في ذلك المشاكل الصحية والأمراض التي تتهددهم والتهديدات لأنهم الشخصي. وكما كان حال معظم أنحاء العالم في القرن التاسع عشر، كانت الأمراض متفشية وكانت كثير من المناطق خارج نطاق تحكم الحكومات وتفتقر إلى

قوى لفرض القانون، في مراجعته الشاملة لتدخل الولايات المتحدة في المنطقة منذ عام ١٧٧٦ وحتى يومنا هذا، يستخدم المؤرخ مايكل آرنبوفرة مجتزأت من وصف المبشرين لعنف المسلمين وغدرهم، وللأمراض التي أصيب بها المبشرون بشكل شبه دائم، ومشقات السفر وذلك في محاولة منه لتصوير المنطقة مكانا طاردا غير مضياف. ويوحى بأن جماعة المبشرين ازدهرت بالرغم من كل الأرجحيات والسليبات الهائلة. أما فؤاد شعبان فيستخدم القرائن المائئة للتدليل على أمر آخر. نجده مثلا يجتزئ مقولات مثل إعلان المبشر إيلي سميث أنه «كلما اقتربت من أورشليم، تقل رغبتك في زيارتها؛ وذلك من توقع مزيد من الألم الناجم عن مشاهد الأثام والشرور الحالية الذي يفوق بهجة تأمل ماضيها المجيد». ثم يذهب شعبان إلى أن كتابات المبشرين لعبت دورا حاسما في توليد تخيلات الأمريكيين عن الإسلام والمشرق ونشرها.

بيد أنه، وكما بين المؤرخ أسامة المقدسى، لم يقتصر أسلوب المبشرين لتخيل المشرق على مسلمى المنطقة فحسب، بل طبقوه على مسيحييها أيضا. وعلى الرغم من أن المبشرين قدموا صورة شائنة للمسلمين، فقد كان عليهم تقديم أنفسهم بصفتهم حملة العقيدة المسيحية الحقة وحماتها بأن يوضحوا، وفقا لمقدسى أن «المسيحية المشرقية لم تكن فاسدة فحسب، بل أيضا أنانية، بالغة التعصب، لا علاقة لها بعامة الناس». من ثم، تمت المزاوجة، في فكر المبشرين، بين المسيحية المشرقية والإسلام بصفتها عمودى الفساد الدنيوى والروحى اللذين ينبغى تسديد الضربات إليهما وهدمهما»، وهكذا، تتحدى استنتاجات مقدسى تركيز إدوارد سعيد على الإسلام، واستبعاده طوائف المسيحية المحلية، بصفته النقطة المركزية التى استهدفتها جهود غرب الأوربيين والولايات المتحدة المطردة كى يجعلوا من المشرق «آخر»، وعلى الرغم من أننى أتفق معه بعامة، بيد أننى، وكما سأبين، فقد كان الإسلام واحدة من بين عدسات ناقدة عديدة تخيل من خلالها الأمريكيون الشرق الأوسط.

تتيح لنا ردود الأفعال على مقتل المقدس چيه، چى كوفينج والمقدس مريام فى حادثين منفصلين فى ستينيات القرن التاسع عشر، تتيح أمثلة دالة على كيفية فهم الأمريكيين للمشرق فى تلك الفترة. بدا وأن الهجومين نفذهما قطاع طرق كانوا يتربصون بالمسافرين. اجتهد إدوارد موريس، رئيس بعثة الولايات المتحدة بالآستانة، دون كلل، ليضمن إلقاء القبض على القتلة ومعاقبتهم بالإعدام ثم قام بكتابة النتائج وإرسالها إلى واشنطن حيث أسهب فى تعليقاته على خصائص الشرق الأوسط. قال إن عملية قطع رأس أحد قتلة كوفينج «أجريت بوقار غير معتاد من أجل ترك انطباع لا يمحو فى أذهان العامة» الذين اعتقد موريس أن مثل تلك العروض تلقى منهم استجابات مُرضية. كان التطبيق السريع لـ «العدالة» لافتا بأكثر من المعتاد وذلك للحصانة التى يتمتع بها المجرمون لدى قتلهم رعايا قوى مسيحية أخرى. ثم تطرق فى تقريره بأسلوب أكثر عمومية لأوضاع التقاها فى المنطقة فوصف الحكومة العثمانية بأنها «أفعى متعددة الرعوس» حيث تعتمد على حكام الولايات يعينون بسبب نجاحهم كرجال بلاط. تحدث أيضا عن يقظته المستدامة ضد «التمييزات العرقية والدينية التى تبدو أكثر استعصاء وعنفا فى هذه الإمبراطورية من أية بقعة أخرى فى العالم، وعن الخوف الذى يلزم الباب العالى من اشتعال حروب أهلية بين الولايات المجاورة التى تدين بديانات مختلفة».

وعلى الرغم من صدقية هذه الأحداث، أسهم تعليق موريس عليها، ومعه رواية المبشرين الأعم عن تجاربهم فى الشرق الأدنى، فى خلق صورة مشوهة للمكان وسكانه ولقواه وقضاياه المحركة. كانت الرواية المركزية للمبشرين تدور حول الانحطاط والخلاص، حول تطهير أورشليم الجديدة للأرض المقدسة من جميع التأثيرات الفاسدة والمفسدة - سواء كانت إسلامية أو مسيحية مشرقية أو غير ذلك - وعن إحيائها من أجل الحاضر والمستقبل. زهبت هذه الرواية إلى أنه من خلال المدارس بخاصة سيقوم المبشرون بتدريس الأفكار والقيم الأمريكية وغرب الأوربية

ونشرها، بحيث يخلقون في نهاية المطاف مُصلحين متعلمين ليبراليين ينتمون للطبقة الوسطى يعملون على تحقيق رؤية المبشرين. انتظرت جماهير المؤمنين الأمريكيين بلهفة هذه النتيجة، وأبقى عليهم مطلعين على العوائق في سبيل تحقيق هذا الهدف، وعلى ما يحدث من تقدم، من خلال خطابات المبشرين إلى الأفراد، وتقاريرهم الرسمية إلى «مجلس المفوضين الأمريكي للإرساليات التبشيرية الخارجية» وهو الهيئة التي كانت تشرف على عملهم التبشيري. كانت تلك المراسلات تُنشر في الإصدارات التي يمكن اعتبارها أولى الدوريات في الولايات المتحدة التي كانت تتعاطى مع أمور الشرق الأدنى مثل: الميشنري هيرالد، والأمريكان ثيولوجيكال ريفيو، والعالم الإسلامي: [الدورية ربع السنوية للأحداث الجارية، والأدب والفكر في أوساط عبدة محمد (Mohammedans)]، وذا بروجرس أوף كريستيان ميشنز إن ذا مسلم لاندز. وهكذا، أصبحت الإرساليات التبشيرية من خلال أنشطتها ومراسلاتها مع جمهورها من المؤمنين في الوطن، المرجعيات الأكثر بروزاً بالولايات المتحدة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن «المشرق» وأثبتت تفسيراتهم نفسها عاملاً فاعلاً في تشكيل الكيفية التي تخيل بها الأمريكيون المنطقة ونور بلادهم فيها.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت تنويعاً من المغامرين، ورجال الأعمال، والمهندسين، والجنود، والسياح، وشخصيات أخرى، قد بدأوا في التجوال بالمنطقة، وعرض أوصافهم الخاصة للمشرق وتقاريرهم عنه والتي ساعدت على تأييد تلك الأساليب المقدسة والعلمانية لتخيل المنطقة. أصبحت «الأرض المقدسة» الوجهة الأولى لطبقة جديدة من السياح الأمريكيين الذين سافر الكثيرون منهم إلى المنطقة على أمل أن يخبروا مباشرة تلك الأنحاء التي قرأوا الكثير عنها الإنجيل. وأدت تلك الرحلات متونا كثيرة من أدب الأسفار لقيت إقبالا كبيرا من القراء ومن ثم عملت بمثابة لقاءات مع المنطقة، ليس فقط بالنسبة لمن ذهبوا إليها، بل أيضا

بالنسبة لمن لم تكن لديهم الموارد للذهاب هناك. كان كتاب «الأبرياء بالخارج» لمارك توين، أكثر تلك الأعمال ذيوعا، حيث سعى توين لنقل حسّ بالأمكان التي زارها إبان رحلته، تلك الأماكن التي قرأ كثير من الأمريكيين عنها في نصوصهم الدينية. يُفتتح الكتاب بمشهد المسافرين وهم يتحرقون شوقا، تؤجج توقعاتهم فرضياتهم الرومانسية عن الأرض المقدسة؛ وينتهي الكتاب بالمسافرين وقد تحطمت أحلامهم على أرض واقع المشهد غير المألوف، والفقر، والقذارة التي التقوا بها في الخارج. روى مؤلفون وكتاب أسفار آخرون بمن فيهم هرمان ملقييل، ودايفيد إف. دور وهو عبد من لويزيانا كان قد جاب أنحاء العالم مع سيده قبل أن يهرب إلى أوهايو، روى حكاوى مماثلة، وبهذا عملوا على دعم الصورة السائدة للمشرق وللإسلام بصفاتهم مختلفين، خطرين، غرائبيين، يهيمن عليهم العنف.

أضاف مبحث «دراسات الشرق الأدنى القديم» طبقة أخرى إلى تخيلات السياح والمبشرين عن انحطاط المشرق ووجوب خلاصه. بدأت الدراسة الأكاديمية للمنطقة في الولايات المتحدة في أربعينيات القرن التاسع عشر بمؤسستين كانت كلتاهما وثيقة الارتباط بالمشروع التبشيري في الشرق الأدنى. كانت أولاهما هي جامعة ييل والتي كانت قد عينت في عام ١٨٤١ إينوارد ساليسبري أستاذاً للعربية والسانسكريت في استجابة منها للاهتمام الواسع بالإنجيل في أنحاء نيوإنجلاند، حيث سرعان ما أنتجت جهودا تبشيرية في الشرق الأدنى وأفادت منها. كان ساليسبري، والذي كان قد تلقى تدريبه كمستشرق في أوروبا، أول أستاذ في الولايات المتحدة يجعل من المنطقة بؤرة تركيزه. ساعد، بمرور الوقت، على أن ينشئ في جامعة ييل مركزا للتدريب في اللغات القديمة أصبح بإمكانه منافسة مراكز الجامعات الأوروبية والألمانية منها بخاصة. أما المؤسسة الثانية فكانت «الجمعية المشرقية الأمريكية» والتي تشكلت عام ١٨٤٢ للتنسيق بين الدراسات عن المشرق وإعداد التقارير عنها، وشملت هذه دراسات جميع الأماكن تقريبا التي تقع إلى

الشرق من أوروبا. كانت هذه الجمعية أيضا وثيقة الارتباط بالحركة التبشيرية حيث كان ستة عشر من مجموع المشاركين الأصليين فيها والذين كان عددهم ثمانية وستين مشاركا أعضاء في «مجلس المفوضين الأمريكي للإرساليات التبشيرية الخارجية».

وعلى مر العقود التالية استمر الاهتمام الأكاديمي بالشرق الأدنى في التنامي وبحلول سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر بدأت عدة جامعات في تطوير برامج في دراسات الشرق الأدنى. وكما أوضح بروس كوكليك، فقد كانت الرغبة الروحية لتوكيد محتويات الإنجيل أو العمل على فهم أفضل لها، هي التي تحفز الأكاديميين العاملين في مجال الدراسات السامية والأشورية والمصرية القديمة وفقه اللغة وعلوم الحفريات. بيد أنه، وبمرور الوقت، اكتسبت تلك الدوافع صبغة أكثر علمانية فيما أصبح القائمون عليها أكثر اهتماما بالأكاديمية المهنية، والملاحظة الموضوعية، وفهم التجربة الإنسانية من بعديها المكاني والزمني. وفي غضون ذلك، تنافس رؤساء الجامعات الذين دعموا أولئك المتخصصين الجدد بجامعات ييل، وينسلفانيا وچون هوبكينز وشيكاغو وغيرها، تنافسوا على تسويد هذا المجال. اجتهدوا كي يقدموا جامعاتهم ومتخصصيها كأفضل مرجعيات في تاريخ الحضارات القديمة، والمسيحية المبكرة، أو أحيانا، الإسلام المبكر. ولتحقيق هذا، تعاقدوا مع أفضل المتخصصين الأوروبيين - الألمان بخاصة - في المجالات المختلفة الأمر الذي أضفى طبعة عبر/دولية مميزة على دراسات الشرق الأدنى بالولايات المتحدة. وبهذا الأسلوب أسست تلك الجامعات سابقة لدراسات الشرق الأوسط الحديث اللاحقة، حيث وفر المتخصصون من أوروبا وأحاء أخرى، مرة ثانية، الكثير من الخبرة المبدئية المطلوبة لتدريب الأمريكيين، وبخاصة في اللغات ودراسة الإسلام.

وبعامة، فإن الباحثين من الولايات المتحدة، أو من الأصول الأوربية الذين

درسوا الحضارات القديمة، أو المسيحية المبكرة أو الإسلام، في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فعلوا ذلك عادة من داخل إطار «استشراقي». وكما أوضح زكاري لوكمان، فقد ظهر هذا الأسلوب لفهم «المشرق» مواكباً لتوسع الإمبريالية الأوروبية ومتناغماً معها بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر. كان الأكاديميون البريطانيون والفرنسيون أول من اشتغل بالدراسات الجادة للمنطقة، بيد أن الأكاديميين والجامعات الألمانية كانوا قد احتلوا موقعا لافتا في ذلك المجال بحلول السنوات المتأخرة من القرن التاسع عشر. كانت إحدى الفرضيات المركزية في الإطار الاستشراقي هي أن عالم الإسلام كان حضارة متميزة أصابها الركود والانحطاط لمئات من السنين قبل أن تدخل حالة من الاضطراب والجيشان فيما التقت بالحضارة الأوروبية والأمريكية الأكثر سموا ورقيا بدرجة هائلة. ومع تركيزهم على أن الإسلام نفسه كيان ثابت لا يتغير، تدرب الباحثون في مجال اللغات المطلوبة، وفتح اللغة والنصوص التأسيسية التي افترض أنها قادرة على شرح كل ما هو إسلامي، بغض النظر عن الفترات والأزمات والأماكن. انتهى الأمر بالباحثين الاستشراقيين إلى تشكيل مجموعة منعزلة تستنسخ نفسها، وكان يتم توزيعهم على الأقسام وفقا لمجال تركيزهم لا على أساس المباحث والتخصصات المهنية، وكانوا يستخدمون نفس المناهج البحثية بشكل أساسي. وهكذا ظل الاستشراق هو الإطار المهيمن في تدريب المتخصصين الأكاديميين وفي تخيل الشرق الأوسط إلى أن أجبرت الحرب العالمية الثانية الباحثين على تطوير أساليب جديدة للتفكير في المنطقة.

تركت تخيلات أكاديمي القرن التاسع عشر، ورجال الأعمال والصحفيين والإرساليات التبشيرية والسياح، تخيلاتهم للمشرق كعقبة في سبيل إنجاز المشروع المقدس والعلماني الأمريكي، تركت عدة موروثات عميقة وباقية. على المستوى الأساسي الأول، فقد تركت مجموعة من الناس ذات شبكة من الارتباطات استخدم

من أتوا بعدهم وجودهم وانتسابهم إليهم ليزعموا لأنفسهم وطوال أجيال تالية معرفة خاصة وخبرة بعلاقات الولايات المتحدة بالمنطقة. وفي بعض الحالات اكتسبت تلك الارتباطات، حرفياً. شكل الشأن العائلي طوال القرنين التاسع عشر والعشرين كما يوضح لنا تاريخ عائلة دودج. كان رجل البر الأمريكي وليام إيرل دودج (١٨٠٥ - ١٨٨٣) مؤسس منشأة فليس، دودج وشركائهما الأمريكية للتعدين. تسلم وليام الابن أمور التعدين فيما ذهب دايفيد إلى الشرق الأوسط حيث ساعد في ستينيات القرن التاسع عشر على إنشاء الكلية البروتستانتية السورية بأموال من شركة التعدين. سعد ابن وليام الأصغر، كليفلاند هودلي دودج الصفوف في مؤسسة فليس للتعدين وساعد في تمويل حملة وودرو ويلسون الانتخابية. سلك ابنا كليفلاند التوعم، كليفلاند إيرل وبايارد مسالك العائلة حيث استمر كليفلاند يمارس أعمال التعدين، فيما واصل بايارد اهتمامات العائلة بالشرق الأوسط ومصالحها هناك. بدأ بالعمل عضو هيئة تدريس بالكلية السورية البروتستانتية في عام ١٩١٣، ثم عمل على إدارة الجامعة كرئيس لها ما بين عامي ١٩٢٢ و١٩٤٨. وفي النهاية تمازجت اهتمامات العائلة في التعدين والتبشير في دايفيد ابن بايارد حيث عمل بأرامكو ما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٤، ثم في خط الأنابيب عبر بلاد العرب (التايلان) من عام ١٩٥٤ وحتى تقاعده عام ١٩٧٦. ثم بعد تقاعده، عاد مرة أخرى وشغل منصب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت في عام ١٩٨١، ليصبح، وكما ذكر روبرت فيتاليس «أول رهينة لأمريكا بلبنان» حينما اختطفه المقاتلون الشيعة أثناء الهجوم الإسرائيلي على بيروت عام ١٩٨٢. قد تكون أسرة دودج أفضل نموذج لأسرة ذات روابط متعددة الأوجه بالمنطقة دامت لفترة طويلة. لكن ثمة آخرين أيضاً مثل عائلات إدي وهوسكينز ومور، الذين تداخلت أعمالهم ومصالحهم بالمنطقة كجزء من المشاريع التبشيرية والتعليمية، وظلوا لابيعين لهم أدوار حاسمة في شبكة إخصائبي الشرق الأوسط بعد ذلك بعقود عديدة.

بالإضافة إلى خلقهم سلالات من الأفراد النافذين الذين زعموا أن لهم خبرة بالمنطقة، فقد كان للبعثات التبشيرية ومعهم الأكاديميون المتخصصون في الشرق الأدنى، ورجال الأعمال، والمستشارون، وكتاب الأسفار نور حاسم في ابتداء رواية عن تخلف الشرق الأوسط ووجوا لها في الولايات المتحدة وحافظوا على استدامتها. لم تؤكد تلك الرواية على تخلف المسلمين فحسب بل أيضا على تخلف مسيحيي المنطقة. فبعد كل شيء فإن كان زعم هؤلاء المبشرين أن مهمتهم هي خلاص المنطقة، فقد كان عليهم أن يعتقدوا أن عقيدتهم المسيحية الخاصة ليست أكثر مصداقية من الإسلام فحسب، بل أيضا من العقائد المسيحية الأخرى الموجودة بالمنطقة، وجهدوا لإثبات ذلك. من ثم، فقد أضفوا على المسيحيين هناك نفس الصفات التي أضفوها على المسلمين. ويتجاهل المبشرين، وكتاب الأسفار، والآخرين الفروق الدينية والطائفية والمذهبية في القرن التاسع عشر وإضفاء سمات زائفة عليها فقد رسخوا سابقة وضع كل سكان الشرق الأوسط تقريبا داخل إطار رواية التخلف والتي ظلت قائمة حتى وقت متأخر من القرن العشرين.

أيضا، تخيلت مرجعيات القرن التاسع عشر تلك «الشرق» وتدخّل الولايات المتحدة في شئونه بأسلوبين لا تاريخيين بشكل جوهري، استند كل منهما بدرجة هائلة على مشروع الولايات المتحدة الذي أدمج فيه الشقان المقدس والعلماني، كانت البعثات التبشيرية الأمريكية والسياح والكتاب وقراء كتابات الأسفار والذين تخيلوا جميعهم «الأرض المقدسة» وأنها بانتظار الخلاص على أيدي الولايات المتحدة، يعون جميعهم تلك الأرض كما كان يحتمل لها أن كانت منذ ألفى عام في وقت يسوع المسيح، أو كما يحتمل لها أن تكون في المستقبل بعد تحولها المقدس إلى شكل معين من المسيحية وتحولها العلماني لتكتسب خصائص نموذج الولايات المتحدة السياسي والاجتماعي. عمل الأكاديميون المتخصصون في دراسات الشرق الأوسط في السنوات المتأخرة للقرن التاسع عشر على استمرار أساليب التفكير هذه عن

المنطقة، تلك الأساليب التي أنكرت عليها حاضرها التاريخي المتميز بأن ركزوا بأسلوب يكاد يكون حصرياً على الشرق الأدنى القديم، فيما أهملوا دراسة المنطقة كما هي في السنوات المعاصرة. كان التخيل اللاتاريخي الثاني - الذي كان على نفس الدرجة من القوة والإشكالية - يتعلق بالولايات المتحدة وعملاتها في الشرق الأوسط حيث تبدت الولايات المتحدة وفقاً لهذا التخيل نمطاً للدولة والمجتمع مختلفاً جوهرياً عن أى نمط كان قد وُجد سابقاً وحتى وقتئذٍ قَدَموها بلداً يقف خارج المشاكل التاريخية والعمليات التي تمر بها البلدان الأخرى، علاوة على ذلك، ومن خلال الأنشطة التبشيرية والتعليمية بالخارج، اضطلعت الولايات المتحدة ومواطنوها بمسئولية الارتقاء بالآخرين وتغييرهم من خلال الإتيان بنموذج الولايات المتحدة الاستثنائي المزعوم إلى الشرق الأوسط وبقية العالم. ومعاً، أوحى هذان التخيلان اللاتاريخيان بعدم استطاعة «المشرق» التغيير وحده، ومن ثم، أوعزا بأن الولايات المتحدة هي وحدها المصدر المشروع لإحداث التغيير في المنطقة. وهكذا أضحي أسلوب تخيل الولايات المتحدة والمشرق هذا عميق التجذر في علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط طوال العقود التالية ومازال تأثيره فاعلاً حتى وقتنا هذا.